

استقلالية السيرة الذاتية وعلاقتها بالممارسات الوسيطة

حوار أجراه د. محمد الداوي مع الباحثة الناقدة الدكتورة جلييلة طريطر.

يكتسي الحوار أهمية خاصة في الوقت الراهن بسبب انكباب صفوة من الباحثين والنقاد العرب (وفي مقدمتهم الدكتورة جلييلة طريطر) على التعريف بالسيرة الذاتية العربية، وتبيين خصوصياتها وملامحها وتضاريسها باعتماد متن رحب بقديمه وحديثه، واستخدام لغة واصفة مستلهمة من أعمال رائدة في مجاليّ الشعرية والنقد الغربيين (جورج غوسدورف، فيليب لوجون، جيرار جنيت، فيليب كاصبارني، أرنو شميت، دورويت كوهن وغيرهم)، سعيا إلى تمييز هذا الجنس عن الأجناس التي تجاوره (الأجناس المجاورة) أو التي تلتبس به (الأجناس البينية أو الوسيطة)، والتي ما فتئت تثير مزيدا من النقاش العلمي الرصين حول هويتها ومنزلتها بالنظر إلى معيار المصالحة أو التجاذب (الشعرية المعاصرة وما بعد الحداثيّة) أو معيار المنافرة والمنابهة (الشعرية الأرسطية والكلاسيكية). وأيا كان الاختلاف بين الطرحين لحد الآن فهما يتفقان حول مسألة جوهرية؛ مفادها تثبيت دعائم "السرديات الذاتية" بتكريس تصورات علمية مرنة تروم استيضاح الحقيقة الداخلية، واستخلاص نقاط التمايز والتماس بين الواقعي والتخييلي بمعزل عن التقحم والانطباعية والتصنيع الخطابي.

1- يتضح من خلال مؤلفاتك وإسهاماتك أنك تعدّين - اقتداء بفيليب لوجون - السيرة الذاتية مشروعا للبحث عن الحقيقة على طريقة جان-جاك روسو. وهذا لا يعني - كما تعلمين - أن السيرة الذاتية تعيد نقل الواقع بخدافه بل تعيد خلقه من جديد، وتعطيه معنى ووضعا اعتباريا بالوسيط اللغوي. لم بقيت مناصرة للإيديولوجيا السيرذاتية ومتشبثة بالمشروع السيرذاتي أسوة بفيليب لوجون؟

أهمّ ما اكتشفه فيليب لوجون في نظري ليس مفهوم السيرة الذاتية في حدّ ذاته - على أهميته ووجاهته - ولكن المسألة التعاقديّة. فارتباط الأجناس الأدبيّة بمعاقدات تتغيّر من جنس إلى آخر لها انعكاسات بالغة الأهميّة في الكتابة الأدبيّة وفي تقبّلها سواء الشّخصيّ أو الممأسس، مثلما هو شأن النّقد الأدبيّ الذي يشتغل وفق آليات تحليليّة ومصطلحات ومفاهيم لا يمكن أن نقرّ بكونها تسحب آلياً على كلّ أنواع النّصوص. اكتشاف لوجون لنوعين من التّعاقّد: تخييليّ ينبني على الإيهام بالواقع، لأنّه مغلق المرجع ولا يحيل إلى الواقع الخارجيّ حتّى إن وُظّف بعض ظواهره، ومرجعيّ/مرجعيّ ذاتيّ منفتح المرجع على عكس الأوّل يضطلع به أنا أصليّ واقعيّ،

هو أهم ما أتمسك به لفهم القضايا المطروحة في الأدب عامة، وأدب الذات بجميع أشكاله على نحو أخص. ولذلك فأهم ضابط يوجه موافقي النقدية من نظرية لوجون السير الذاتية ليس الانحياز الاعتباري، بل هو هذا المعيار التعاقدية النسقي الذي وضع خيطا دقيقا فاصلا بين كتابة تنشئ التخييل والتّرميز، وكتابات تتوخى سبل الخطاب التاريخي المصغر *Micro histoire* الذي يفصح عن هاجسه التاريخي بوضوح في المعاقدة بحثا عن حقيقة تاريخية متنوعة المشارب، هي من أحد وجوهها حقيقة سير ذاتية فردية تشمل حياة مترامية الأطراف في الزمان والمكان وأنموذجها الأوروبي التدشيني *اعترافات* جون جاك روسو، أو حقيقة تنقضي تفاصيل اليوم المتشظي دون احتكام إلى الروابط التعليلية التي توجد الخيط الرابط بين تجارب الفرد الواحد، مثلما هو شأن اليوميات الخاصة، فكل شكل ذاتي ضرب من الحقيقة الذاتية التي ينشدها على نحو خاص بإنشائته، هذا فضلا عن كون الكتابات الذاتية عامة تتجاوز استعادة الحياة الشخصية والتوثيق لها إلى استحضار الذاكرة الجمعية ووقائع تتعلق بالمجتمع والسياسة والثقافة إلخ ينبغي أن نقر بداية أن توصيف موثاق التعاقد اللوجوني مثل لحظة تصنيفية حاسمة في تاريخ النقد الأدبي الحديث، فقد أقام الحدود النسقية ووصفها بدقة ووضوح. لذا فالتمسك بتعريف السيرة الذاتية اللوجوني هو مبدأ منهجي في تفكيري النقدي يؤدي التنكبت عنه إلى الخلط ليس بين الأجناس فقط، بل بين النسقين الأدبيين الكبيرين. وما يدعم وجهة الفصل بين النسقين هو ما استخلصه لوجون من المعاقدات المصاحبة للكتابات، وهي معاقدات لم يسقطها على النصوص، بل استخلصها منها. وعلى ذلك فموجة الانتقاد التي طالت تعريف لوجون للسيرة الذاتية مبالغ فيها، وأحيانا مغرضة أو صادرة عن عدم تعمق في حيثياته النظرية الدقيقة. إنّي لا أشك في أن مغامرة البحث عن الحقيقة الشخصية مثلما مارسها روسو ومن شابهه وعرفها لوجون تتمتع بمشروعية أدبية ونقدية كاملة لا يمكن لعارف بالتّصوص أن يطعن فيها أو أن ينكرها. يكفي ها هنا أن يعود العارف في الثقافة العربية بمقدمة حياتي لأحمد أمين الصادرة في الخمسينات (قبل عقدين من نظرية لوجون) لكي يقر بأنّ خلافة المعاقدة السير الذاتية المرجعية هي ركيزة هذه الكتابة الأجناسية الأولى، وقد أثبت أحمد أمين كلّ الأركان التعاقدية التي قام بتوصيفها لوجون بدقة متناهية في مقدمته المذكورة، وهذا التوافق النظري ليس وليد الصدفة في نظري رغم الاختلاف السياقي والفاصل الزمني بين العلمين المذكورين.

المترحمون لدواهم الكلاسيكيون أقرّوا بأنهم يمارسون عبر آليات الكتابة الأدبية مشروعا مغايرا لكتاباتهم الروائية، وهذا المشروع يتّجه صوب استكشاف حقيقتهم الذاتية التي تنتظم في السرد وبواسطة الحكمة السردية وفيها. لذلك قلت في مؤلّفي النقدي *مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث* المؤسس لأشغالي في السيرة الذاتية إنّها مشروع تعريفي يتبلور في الخطاب السير ذاتي بعد تشنّته في الوثائق الشخصية وفي ثنايا الذاكرة. فمن هذه الجهة أنا متمسكة بما أقره لوجون ومن قبله أحمد أمين، لأنّه أمر واقع وليس تنظيرا

مسقطاً، ولولا وضوح النظرية اللوجونية لما أمكن أصلاً لدوروفسكي أن يملأ الخانة النقدية العمياء! فرفض تعريف لوجون للسيرة الذاتية لا مبرر له، لأنه استدلائي من جهة، ثم لأنه إلى اليوم هو التعريف الذي يأخذ به الجميع حتى للتشكيك فيه بدون أن يصلوا إلى أي نتائج يمكن التّسليم بها، بالعكس تماماً. ولكنّ موقفنا من تنظير لوجون لا يخلو من مأخذ وتدقيقات تتصل بمدى اتّساقه بين التنظير والتطبيق. أولاً أأخذ بتعريف لوجون للسيرة الذاتية لا يعني أنّه ينسحب على كلّ السير الذاتية -ولا أتحدّث هنا عن تجنيس فاقد للتمييز بين خصائص الكتابات الذاتية- فنصوص السيرة الذاتية تطوّرت فما هو النحو المنحى الكلاسيكي ينطبق عليه إلى اليوم تعريف لوجون، ولكن تيار الرواية الجديدة مثلاً مارس كتابة سير ذاتية ضديدة ترفض الحقيقة السيرة الذاتية وتجعل من نموذج كتابتها نموذجاً ضديداً، مثلما هو شأن نتالي ساروت "في الطفولة" *Enfance* وحتى رولان بارت في "رولان بارت بقلم رولان بارت" *Roland Barthes par Roland Barthes* لا وجود والحال هذه لتعريفات نهائية في نظري، ولكن بعضها يظلّ صالحاً حسب النصوص، ويمكن أن نستنبط تعريفات للسيرة الذاتية أخرى متطورة بحسب تطوّر أشكال كتابتها. أمّا ما لم أوافق عليه لوجون، فهو تنكّره أو تنصّله من استتباعات المعاقدة المرجعية الذاتية التي مثلت نواة تنظيره، فقد تنكّر للحقيقة الشخصية باعتبارها ضرباً من الحقيقة الميثية!! فما الحاجة إلى إبرام معاقدة صورية لا تفضي إلى شيء إذا كانت الحقيقة الذاتية حميمة واثمائية *Fiduciaire* ولا يمكن إخضاعها نسبياً للتحقيق مثلما هو شأن الحقيقة التاريخية؟ والخطأ الثاني منهجيّ، فقد بنى لوجون تحاليله النقدية على خلفيّة السرديات الروائية وهي غير مشتقة من الخطابات الذاتية، فلا تؤدّي فيها الوظائف المرجوة. هذه الثغرة انتبه إليها جيران جونات منذ التسعينات ونبّه إلى ضرورة مراجعتها.

لقد حاولت في مختلف أشغالي أن أسهم في معالجة بعض هذه الإشكاليات، فنقلت لأوّل مرّة مفهوم الهوية السردية من فلسفة بول ريكور إلى مجال السيرة الذاتية (وهي مسألة لم ينتبه إليها لوجون إلّا في الألفية الثانية واعترف بأنه لا يفهم دائماً ما يكتبه بول ريكور، ولم يعض في استقصاء الهوية السردية رغم أنها تمثل في نظره النهج الصحيح في فهم إشكاليات السيرة الذاتية، مكنتها بالتنويه والاعتذار لأنه لم يتوغل في المسار العلمي لريكور (أنظر في هذا الصدد إلى كتاب فيليب لوجون "علامات الحياة" *Signes de vie*) وراجعت اتّهام الحقيقة السيرة الذاتية بعدم المصادقية وإغراقها في الكذب والتلفيق وعدم الاستجابة للتحقيق، فاستحدثت مصطلح التوسيع المرجعيّ وبيّنت تقاطع النصوص الذاتية وإمكانات إخضاعها للتحقيق حتى في مستوى الحميم من خلال اعتماد ما أسميته مقارنة تقاطعية. كما تبّنت مفهومها للحقيقة خطابي، فلا وجود لأيّ حقيقة خارجية ثابتة خارج الخطاب/الخطابات يمكن أن نفترضها أو نقيس على أساسها الصدق من الكذب في خطاب السيرة الذاتية، ولا حتى في أيّ خطاب تاريخي آخر. الحقيقة تتشكّل

داخل معاقدة وتبنى في تقاطعات خطابية تتحكم بها منظورات عدّة وغير نهائية. لذلك اخترت في توجّهي النقدي تبني مقارنة نقدية أجناسية وثقافية تأخذ بعين الاعتبار تقاطع النصوص (نقد تقاطعي) وكيفية استجابتها وتفاعلها مع المعطيات التاريخية بمختلف أنواعها ورفضت الاعتماد المطلق على النقد الجماليّ لهذه الكتابات إلّا متى كانت العناصر الجمالية لها وظائف مرجعية تمثيلية تكفلت من خلالها بتشكيل المرجعيّات التاريخية تشكيلا أدبيّا بعيدا عن مفهوم الاختلاق والكذب. تفعيل السرديات - رغم أنّها غير مناسبة أجناسيا- لا يمكن إلّا أن يطمس المرجعيّات التاريخية والذاتية ويحيل نصوصا بالغة الأهمية لها مكانة الشّهادة على العصر إلى استراتيجيات شكلية توصيفية تفرغ النصوص من معانيها. لذلك كلّه أنا أرفض الترميز: مع/ضدّ لوجون، وأرفض الانتقادات السطحية التي تقلّل من أهمية هذا المنظر الدقيق، فالاصطفاف لا يقدم التقد، وإنّما هو ضرب من الإيديولوجيا الانفعالية التي لا أتّبناها، النقد البناء يستجيب لمقتضيات نسقية النقد وتراكماته فضلا عن كونه يبني ويدقّق والبناء لا يقتضي بالضرورة الترويح للتخطيط والتعامل، خاصة إذا كانا موقفين غير مبرّرين علميا. وأزعم- والعهد عليّ- أنّ الكثير من النقد العربيّ المتحامل على نظرية لوجون نقد جاهل بتفاصيل هذه النظرية، أصحابه لا يقرأون- للأسف- النصوص الفرنسية المؤسّسة، ولا يتابعون مختلف تطوّراتها، ولا حتّى المؤلّفات المختصة بالعربية ويتعاملون مع النقد كما لو أنّه ضرب من الشعارات التي يكفي الصراخ بها للإقناع بحصافة آرائهم، فضلا عن ممارسة نقد متشرذم يضرب بسهم في كلّ ألوان القول والخطابات دون تعمّق أيّ منها! لست ممّن يؤمنون بأنّ النقد سياحة عابرة في نصوص متنوّعة، فلا يحتاج إلى تخصّص عميق.

2-صاغ فيليب لوجون " الميثاق السيرداتي"(1975) في البداية بإمكانية " لا هذا ولا ذلك"، وعندما راجعه ("أنا أيضا"، 1987) تبين له أنه أغفل إمكانية "هذا وذلك في الآن نفسه"، و أنه لم يخض أيضا في إمكانيات أخرى التي تبين الحالات المختلفة التي تتقلب فيها السيرة الذاتية من جهة، وتلتبس بأنواع أخرى من الأدب الشخصي من جهة ثانية. وإن أقر بما فيليب لوجون ظل وفيا للمشروع السيرداتي بدعوى رفضه للاختلاط والهجنة ("أحب الرواية وأحب السيرة الذاتية لكنني لا أطيق اختلاطهما" وعدم سوغه الجلوس على كرسيين دفعة واحدة. ألا ترين أن فيليب تعامى عن ظاهريّ الاختلاط والهجنة اللتين أديتا- بحكم التجاذب الروائي والسيرداتي- إلى بروز أشكال سردية جديدة أو ذات خلقة غريبة (مثل رواية "بحثا عن الزمن المفقود" لمارسيل بروس)؟

الاختلاط والمهجنة قضية نقدية لم تأخذ كل هذه الأبعاد الجدلية التي شهدتها منذ أواخر السبعينات إلى اليوم وخاصة في أوروبا وفرنسا تحديداً إلا بفضل نظرية لوجون، فالانقلاب الذي حصل ضد لوجون حصل بفضل في رأيي، ولولا الحدود الصارمة التي وضعها بدقة فائقة بين التشكّلات النصية في كل من النسقين التخيلي والمرجعي الذاتي لما أمكن لسيرج دوبروفسكي أن يملأ ما يعرف بالخانة العمياء التي تركها لوجون فارغة، باعتبار أنّ التداخل التعاقدية بين المتخيل (الوسم الروائي) والمرجعي الذاتي (استعمال اسم العلم باعتباره مؤشراً مرجعياً) غير ممكن، فإما هذا أو ذاك، ومسألة الكتابة السيرداتية هي طبقاً لمفهوم لوجون مسألة هوياتية لا تحتمل التلاعب أو التمويه « Une affaire de tout ou de rien » لذلك أعتبر خلافاً لما يروج أنّ أول شكل من أشكال المهجنة السردية متمثلة في "ابن/خيوط" *Fils* للجامعي دوبروفسكي هو ابتكار إبداعي تغذى من رهان التلاعب بالفصل المنهجي بين المتخيل الروائي والمرجعي السيرداتي، فلولا ضبط الحدود لما أمكن تصوّر الخروقات أو لنقل إنّ الخروقات تدين بإمكانية تبلورها لرسم الحدود *Le têtard* فكيف ندين كل محاولات رسم الحدود بين الأجناس وننادي في ذات الوقت بمشروعية المهجنة بل وأولويتها ومنحها مكانة عليا لا تستقيم لها من فراغ وبغير تحديد ضوابط مبدئية تكون محل اتفاق ما قبلي؟ إذن في اعتقادي مشروع لوجون هو أفضل مشروع لتبرير المهجنة وتيسير توصيفها باعتبارها مهجنة، فلا أفهم والحال هذه لماذا كل التهجم على صرح نظري متين وعلى منظر كل ما يلام عليه من صرامة كان مطية لشرعنة ما يتهاافت عليه المتحاملون عليه؟ وفي الأخير لوجون في كتابه "أنا أيضاً" *Moi aussi* لم يرفع مطلقاً الضوابط الأجناسية النسقية التي وضعها، ولم يتراجع عنها، ولم يتنكر لها -مثلما يروج لذلك بعض المتسرّعين في التحامل عليه دون عمق كبير- بالعكس أقرها وأبرز تمسكه بها -وهو عندي محق في ذلك- كل ما في الأمر هو أنّه درس وجوه الانزلاق التعاقدية وتداخلاتها السياقية الممكنة بالنسبة لتعارض وضعيات نشرية مع وضعيات مؤلفة *Auctoriale* مثلما هو شأن دراسته لوضعية كتاب Lanzmann الموسوم بـ *le Têtard* فقد أصرّ الناشر على استعمال المؤشر الأجناسي "رواية" للكتاب في حين استعمل المؤلف اسمه المعروف، وكذلك أسماء أفراد من عائلته وصرّح بأنّه كتب حياته الشخصية ولم يكتب رواية. وهذا التصريح كاف بحسم المسألة نهائياً، أمّا الجدل الأجناسي الذي واكب صدور الكتاب، فهو من باب التباس الوسم النشري بمؤشرات الكتابة السيرداتية في متن النصّ. كلّ الحوارات وهي ما يصطلح عليه جونات بالمصاحبات النصية الخارجية *Épitexte* انتهت إلى تأكيد مرجعية الكتاب الذاتية وليس هجنته! هناك إذن فرق كبير بين دراسة المهجنة الأجناسية باعتبارها تعبيراً عن وضعية تقبل ملتبسة لأسباب يمكن إزالتها، والمهجنة بما هي اختيار إبداعي يرغب في تحطيم الحدود الأجناسية ويجرّ النقد على القيام بمراجعات جديدة، وهذا في الواقع ما يحدث لأنّ الإبداع حرّ، وليس مرتعناً بضوابط النقد، رغم أنّه أحياناً يستغلّها لكي

يكسر الأنماط السائدة ويتموقع في التخوم، وليس على النقّاد إلّا إعادة النظر في أنساقهم من أجل تعديلها أوفكّ الإشكال داخل المنظومة النقدية المعتمدة مثل اعتبار مؤلّف دوبروفسكي نوعا من أنواع الكتابة الروائية نسّميه تخيلا ذاتيا، ولكنّه ليس سيرة ذاتية ولا يمكن أن يكون شاهدا على استحالة استقلاليتها الأجناسية، فإلى اليوم تكتب السير الذاتية بأسلوب روائيّ ويحرص كتابها على عدم اندراجها ضمن النسق التخيليّ الروائيّ.

3- بين فيليب لوجون الإشكالات والقضايا التي تثيرها المنطقة الوسيطة أو التجريبية باستحداث أشكال سردية تنأى بالقارئ عن " التصديق السيرداتي"، وتفتح عليه جملة من الألغيب الفنية والتخيلية. أهو توجس الكتاب من السيرة الذاتية لسوء ظنهم بها وتقديرهم لها (على نحو كرستين أنجو Christine Angot التي تزعم أن ما تقوله عن ذاتها- ولو أنه قابل للتحقق من صدقيته وصحته- هو ضرب من الخيال) أم أن الأمر يتعلق بظواهر أدبية جديدة تستحق أن تُعالج بأدوات ومفاهيم مناسبة؟

البحث في وضعيات أجناسية تقع في مناطق تخمّية أو اعتبارها وضعيات تجريبية مسألة حيوية تدلّ على وجود تفاعلات جدلية بين الإبداع والنقد. ولكنّي أرى أنّ الإبداع ليس مضطرا لكي يكون في علاقة توافق مع النّقد، فهو لا يكون إبداعا إلّا متى يكون حرّا. لذلك لا أحبّد تحوّل الكتاب إلى نقّاد يناقشون كتاباتهم بلغة نقدية صرفة ويخوضون في جدل ليس من مهامهم، مثل الخوض في صدقيّة السيرة الذاتية من عدمها وتأيد مقولات الكذب السيرداتيّ أو عدم تأييدها هذه مسائل تترك لأهل الفكر والتنظير، وحسنا فعل طه حسين حينما سئل عن جنس الأيّام بعد الحيرة الأجناسية التي واكبت صدوره، فأجاب بما معناه هذا شأنكم وليس شأنني. لكلّ كاتب الحرية في ابتكار ما يراه صالحا أو ما يتلاءم مع التجربة التي يرغب في التعبير عنها ، ولا أحبّد كثيرا أن ينساق وراء رهانات نظرية يكسرها أو يدعمها، لأنّ الإبداع العميق ينبع عن تجربة أصيلة أو حاجة للتجريب أصيلة لها ما يبرزها على الصعيدين العامّ والخاصّ ، أمّا أن تتحوّل الكتابة إلى حلبة صراع بين الإبداع والمقرّرات النقدية فهذا ما لا أستسيغه، وأعتبره نوعا من التصنّع الخطابي الذي لا يمكن أن يقاوم الزمن، فالعبقريّة الفنيّة تعبّر عن تجربة أصيلة تنبع من الداخل. أمّا النقاد فمجالهم هو المتابعة والعود على بدء، أي مراجعة تصنيفاتهم بالإثبات أو التعديل حسب ما يجدرّ من إبداعات فمهامهم استقرائية وبنائية تنشُد السيطرة على الإبداع وإخضاعه للنمذجة حتّى يخرج من طور الخطاب المستهلك إلى طور المعرفة المنمذجة، فعندما يتطوّر الإبداع على النّقد أن يواكب هذا التطوّر ويتملكه بأدواته الخاصة سواء كانت قديمة أو جديدة مستحدثة للغرض.

4- أغلب من درس الأدب الشخصي عموماً والسيرة الذاتية خصوصاً انشغل أكثر بالهوس التجنيسي، في حين حرصت ثلثة منهم (مثل جيرار جنيت، دوريت كوهن، أرنو شميت، بول ريكو) على الاهتمام بالقضايا التي تهم السردية (Narrativité) والتخييلية (Fictionnalité) بحثاً في التجاذبات التي تحصل بين السردين التخيلي والواقعي، وسعياً إلى فهم التحولات التدريجية (Transitions graduelles) التي تطرأ بينهما. ألا ترين بأن هذه المكاسب النظرية-على قلتها- قادرة على تشييد السرديات الذاتية لمأسسة الأدب الشخصي، وتجنيس مكوناته، ودراستها بالأدوات العلمية المناسبة؟

منزلة كتابات الذات من المأسسة النقدية أراها حققت خطوات عملاقة منذ السبعينات إلى اليوم ولكنها مازالت أيضاً تقتضي الشيء الكثير من الدراسة والتدقيق المعرفي، ولا سيما على مستوى دراستها باعتبارها خطاباً أدبياً لا يخلو من أبعاد شعرية جمالية. أولاً لا بد من أن نثمن الجهد المعرفي التجنيسي الهائل الذي تبلور في النظرية التعاقدية الأجناسية اللوجونية. فبفضل مقولة العقد السرداتي أمكن فرز الأدب وتصنيفه لأول مرة تصنيفاً نسقياً تعاقدياً: المتخيّل بما هو أدب منقطع المرجع Pseudo référentiel والمرجعي الذاتي بما هو أدب واقعي يستمد واقعيته من صيغته التلفظية التي تصدر عن أنا أصلي واقعي (المؤلف ممثلاً في اسم العلم مطابق للراوي والشخصية). هذا التصنيف الخلافي هو بداية الاعتراف بنوع من الأدب كان خارج دائرة المأسسة النقدية وهو أدب الذات أو الأدب الشخصي. لذلك فمسألة التجنيس على غاية كبيرة من الأهمية، وهي التي ولدت الأسئلة الأساسية المنجزة عنها وفي مقدمتها سؤال المقاربة أي مقارنة/بات لهذه النوعية من الأدب الذي يصنّف ضمن خانة الخطابات الواقعية القريبة من الخطاب التاريخي؟

فيليب لوجون لم يطرح هذا السؤال منذ البداية رغم أنّه المنظر الأول لخلافية سرديات الذات، فقد اكتفى بإسقاط السرديات على النصوص السردية مكتفياً بتفعيلها للكشف عن إنشائية النصوص المعتمدة، فكان جيرار جونات هو أول من نبّه في التسعينات في كتابه *Fiction et Diction* إلى ضرورة استنباط سرديات الملفوظات الواقعية منها واحتراز كل الاحتراز من إخضاعها لآليات تحليلية أنسب لتحليل المتخيّل الروائي بحكم استنباطها منه. وقد نبّهت بدوري منذ البداية القارئ العربي لهذا الإشكال وحاولت في أحد مقالاتي أن أقدم بعض التصويبات المفاهيمية في هذا الموضوع. كذلك نبّهت لتناقض مقتضيات العقد السرداتي في نظرية لوجون مع اكتفائه تطبيقياً في حالات كثيرة باعتماد السرديات التي لا تستجيب لهذه المقتضيات.

ثانياً أرى أنّ وضعيّة سرديات الذات مختلفة جوهرياً عن وضعيّة سرديات الرواية، لأنّ واقعيّة الخطاب في الأشكال الذاتية يقرّبها من رهانات الخطاب التاريخي الذي يثير قضايا تتصل بتعدد الاختصاصات ولا تتمحور حول شعريّة الملفوظ وجماليّات تقبله رغم أنّنا لا نستبعد مطلقاً وإلّا نضعها في درجة ثانية أو ثانويّة. الخطاب السيرديّ مثلاً يمكن أن تكون مداخله تاريخيّة أو سوسيوولوجيّة أو نفسيّة أو انثروبولوجيّة لا شيء يمنع من اعتماد مقاربات تنبع من هذه الاختصاصات إلى جانب المقاربة الأجناسيّة طبعاً. وهي مسألة خرجت من طور الاقتراح إلى التطبيق الفعلي خاصّة في النّقد الفرنسي والأوربيّ عامّة. أمّا في النّقد العربيّ فهي مسألة مازالت غير واضحة في كثير من الدراسات التي تقتحم مجال نقد كتابات الذات، وهنا اعتقد أنّ السبب يعود إلى الزعم بأنّ السيرة الذاتية مثلاً هي نوع من الرواية أو رواية مقنّعة لا عبرة فيها بالحقيقة السيرديّة وبأهميّة الإحالات المرجعيّة. هذا التوجّه من أهمّ العوائق الابستمولوجيّة التي تحول دون استنباط سرديات الملفوظات الواقعيّة، ولذلك لا أحبّذه وأعتبره ضرباً من التعمية التي تسدّ الطريق أمام فتح أبواب البحث الناجعة لتطوير معرفة نقدية ملائمة لنوعيّة الملفوظات السردية الواقعيّة.

5- رغم ما تحقّق على مستوى الأدب الشخصي من تراكمات ما فتئت عينة من أنواعه تحظى بالاهتمام أكثر من باقي الأنواع الأخرى. أكثر من ذلك لقي "التخييل الذاتي" اهتماماً كبيراً إلى حد "التنظير المفرط" الذي زاد من التباسه، وفتح الباب على مصراعيه لكل من هب ودب للإدلاء بدلوه في الموضوع دون روية. ما السبيل - برأيك - للخروج من هذه المأزق التي غالباً ما تعسر مهمة تجنيس أنواع الأدب الشخصي، وتبعثر الأوراق للحيلولة دون فهم هويتها وطبيعتها على وجه المطلوب؟

فعلاً لا بدّ من الإقرار بأنّ الأشكال الذاتية لم تحظ بقدر متساوٍ أو حتّى متقارب من الاهتمام النقديّ تنظيراً وتطبيقاً. وأحسب أنّ الأشكال الأكثر حظوة بالدراسة هي السيرة الذاتية واليوميات الخاصّة والتخييل الذاتي. وهنا لا بدّ أن لا نعمّم هذا الاستنتاج على كلّ الثقافات، فحديثي يتّصل من جهة بالنقد الفرنسي والنّقد العربيّ من جهة ثانية، وهذا الأخير لم ترسخ فيه بعد الدراسات النقدية الخاصّة بكتابات الذات بالقدر الكافي، وفي هذا الصدد أسجّل عناية خاصّة بالسيرة الذاتية التي كنت خصصتها منذ أواخر التسعينات بدراسات عديدة أهمّها مؤلّفي المشار إليه آنفاً "مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربيّ الحديث"، وأحسب أنّ هذا التوجّه هو الأغلب سيّما في المغرب العربيّ عموماً، ولكن في المغرب وتونس بالأخصّ نظراً لتوقّر الأرضيّة التي مثّلتها أيضاً كتابات محمد الداوي السيرديّة ومختلف الحوارات الهادفة التي أنجزها للتعريف بهذا الجنس الأدبي مع أعلام النّقد الفرنسي. ولكيّ في هذا

الصدد ألاحظ أنّ جلّ الدّراسات الّتي تطرق هذا الجنس لا تقدّم الإضافة النّظرية المطلوبة أو تقدّم دراسات تطبيقية لنصوص لا يتمّ تمحيص انتمائها إلى السيرة الذاتية بشكل كاف ومقنع. ومردّ ذلك في نظري إلى عدم توقّر الاختصاص الدقيق لدى الممارسين لهذا النقد الّذي يتعايش لديهم مع نقد الرواية والشعر وما شابه سواء بسواء. كتابات الذات لم تستقلّ بعد في الدرس الأدبي العربي بنقّادها المختصين المتعمّقين في الاختصاص. وفي هذا السياق العربي أيضا أسجّل بالتوازي ضمور دراسة الأشكال الذاتية الأخرى مثل المذكرات خاصّة واليوميات الذاتية الّذي خصصته بدراسة نقدية عنوانها "أدب البورتريه، النّظرية والإبداع" هي إلى اليوم يتيمة، ومحكي الطفولة أمّا اليوميات الخاصّة والمراسلات الشخصية فهناك بوادر توجّه للاهتمام بها تبقى غير كافية وتحتاج إلى تعمّق. بقي التخييل الذاتي الّذي أنجزت فيه مبكرا كتيّبا مطبّقا على "أصداء السيرة الذاتية" لنجيب محفوظ صدر في القاهرة عن المجلس الأعلى للثقافة عام 1997 فهو جنس هجين ومشكليّ، لأنّه يتنوّع بقناع السيرة الذاتية وفي ذات الوقت يتمسك باندراجة ضمن المتخيّل الروائيّ، هذا التضادّ هو مصدر القلق الأجناسي للتخييل الذاتي الّذي أسال حبرا كثيرا، لاسيّما في فرنسا حتّى عقد له مؤتمر خاص ب(Cerisy-la-salle (2008 ضمّ كبار أعلام السرد الفرنسيّ، ولكنهم في نهاية المطاف قدّموا تأويلات مختلفة لهذه الظاهرة الأجناسيّة الّتي افتعلها دوبروفسكي افتعالا عندما راهن على ملء شغور الخانة العمياء في تصنيفيّة لوجون الأجناسيّة. ومهما تكن التأويلات مختلفة فالأهمّ هو هذا الحراك النقدي الّذي وجّه العناية نحو تدارس مناطق التداخل أو التّخوم الأجناسية بين المتخيّل والمرجعيّ.

أمّا رأيي الشخصي فهو يتّجه نحو اعتبار التخييل الذاتي صنفا من أصناف الرواية تستعمل اسم العلم على نحو تخيليّ مثلها في ذلك مثل لجوء الرواية عامّة إلى توظيف مرجعيّات واقعيّة أخرى وصهرها في المتخيّل الروائيّ. ربّما نكون إزاء درجة قصوى في هذا التوظيف لا غير. لذلك أرفض إلحاق التخييل الذاتي بكتابات الذات الّتي تبني على رهانات تعاقدية ذات أبعاد تاريخيّة دقيقة وتوثيقية لا يمكن بأيّ حال من الأحوال الاستهانة بها أو حملها محمل التمثيل التخيليّ، فحتّى الأسلوب الروائي المعتمد في أشكال الذات ليس من جنس التمثيل الروائي في نظري، وهو موضوع سرديّ فلسفي أثرته وتعمّقت فيه منذ كتابي مقوّمات السيرة الذاتية في الأدب العربيّ الحديث ومضيت في تعميقه وتشقيقه أشواطاً في كلّ أبحاثي اللاحقة للكتاب المذكور. أنا أحتفظ بمقولة لوجون وأعمّمها على كلّ الأجناس الذاتية إنّها كتابات هوياتيّة فإنّما التصريح بذلك وتحمل تبعاته أو لا شيء. الفصل بين كتابات الذات والمتخيّل أهمّ من عمّقه على مستوى عالمي هو جورج غوسدورف في مجلّدين كبيرين (اكتشاف الذات (1948)، الذاكرة والإنسان (ج1 الذاكرة الملموسة، ج2 جدلية الذاكرة) (1951)، مسارات الحياة (ج1 الكتابات عن الذات، ج2 السيرة الذاتية)).

أني فيهما على خصائص كل كتابات الذات في التسعينات. ولذلك سؤال عدم توازن دراسات أشكال الكتابات الذاتية لا ينطبق على النقد الفرنسي مثلما ينطبق على النقد العربي رغم وجود تفاوت نسبي طفيف، ولكن نظريات هذه الكتابات تطوّرت واستقلّت تقريباً كلّ شكل ذاتي بمنظريه مثل اختصاص جان لويس جانال في المذكرات وبوجور في البورتريه الذاتي وديدياي في اليوميات الخاصة إلخ أمّا بالنسبة إلى ما يثيره التنظير للتخييل الذاتي من مشاكل فإنّي من جهتي لا أعتبره جنساً حيويّاً إلى اليوم في الأدب العربي ولا ذا أولويّة لأسباب موضوعيّة أهمّها ندرة النصوص التي تمثّله حقيقة في رصيدنا، فهذا الجنس المحجن يسقط (تعتّفاً) أحياناً كثيرة على نصوص لا تتوفّر على شروطه الأكثر وضوحاً! أمّا الدراسات النقدية الصادرة في شأنه فغير متجانسة القيمة ومنها ما هو رديء جدّاً لا ينبع عن اطلاع واسع ولا عن معرفة رصينة بالتنظير والنصوص وإنّما هو ضرب من الخلط والعموميّات المخلة بمنهجيات الكتابة العلميّة. وبالمناسبة أشير هنا إلى أنّ السبب فيما يحصل هو ظهور بوادر تيّار نقديّ خطير معرفيّاً يهدف إلى تصيّد ما هو جديد من مباحث وعدم التهيّب من الدرس النقدي وما يقتضيه من أناة وشعور بالمسؤوليّة، والانسياق وراء ضرب من الإشهار النقدي الذي أصبحت تروّج له شبكات التواصل الاجتماعي، فيتحوّل إلى كتب لا خير يرجى منها. أعبر هنا عن هذا الموقف من منطلق ما أراه يوميّاً من تحولات خطيرة لا يؤبه لها، بل وتركّي أحياناً، فدمقرطة المعرفة التي تؤوّل إلى نوع من الشعوذة أو الشعبويّة المعرفيّة مسألة مرفوضة نهائياً عندي. عموماً أرى شخصياً أنّ التخييل الذاتي ليس بذّي أولويّة إلى اليوم في الأدب العربي الحديث، والأولى هي الأجناس الذاتية المرجعيّة التي تطرح قضايا واقعيّة وحارقة تعاني منها مجتمعاتنا والأفراد فيها على نحو لافت وحارق. كتابات الذات تزدهر زمن الأزمات، وزماننا هو زمن الأزمات بكلّ أشكالها وأنواعها أمّا التخييل الذاتي فهو ضرب من الترف الذي يتمتّع بمشروعيّة سيكولوجيّة وإيديولوجيّة في أوروبا لا أرى أنّ عناصرها متوفّرة في مجتمعاتنا التي تعاني من قضايا معيشيّة وأوليّة لا يمثّل التخييل الذاتي الجنس الأمثل للتعبير عنها، وما يدعم رأيي هو ندرة نصوص التخييل الذاتي في العربيّة.

6- يستكشّل الوضع أكثر في العالم العربي بسبب المشاكل التي يعاني منها النقد المواكب لمكونات الأدب

الشخصي. باستثناء عينة من هذا النقد، ما فتى معظمه يتخبط في مشاكل كثيرة تحول دون أدائه المهمة المنوط بها

على الوجه الأحسن. ما تقييمك لوضع الأدب الشخصي في العالم العربي؟ وكيف يمكن أن نحقق المصالحة بين الأدب

الخاص والنقد الذي يعني به؟

سؤال الأدب الشخصي أو كتابات الذات في الثقافة العربيّة هو سؤالان في الواقع: سؤال النقد وسؤال الإنتاج الأدبي.

بالنسبة إلى تقييم السؤال النقدي أعيد تأكيد أهمية الانتباه إلى ضرورة تطوير مقاربات الأدب الشخصي تطويراً أكاديمياً رصينا ينأى به عن النقد المناسباتي أو النقد الإشهاري أو النقد الصحافي أوحىّ النقد الأكاديمي الضعيف. ترى أنني أعدّد وجوهاً للنقد متنوّعة وأعتبر مع الأسف أنّ النقد الأكاديمي ويمثله الجامعيون، ولكن يمثله أيضاً الباحثون المتمزّنون على النقد في إطار إنجاز الرسائل العلمية بمختلف درجاتها نقد في تراجع مستمرّ لغويّاً ومعرفيّاً وكلّ استثناء يؤكّد القاعدة، وهي ظاهرة لافتة وخطيرة ولعلّها علميّة إلى حدّ ما. المشكل أساساً تكويني وأسبابه متداخلة تحتاج إلى دراسات ومن مظاهر الوهن التكويني ضعف التمكن من اللّغات الأجنبية، فالبحث العلمي يحتاج إلى تمكّن لغويّ من الانجليزية والفرنسيّة خاصّة في الأدب الشخصي، إذ كيف يمكن لباحث أن يخوض بدقّة في قضايا هذا الاختصاص وهو لا يحسن قراءة لوجون أو غيره من المنظرين، نحن لا ننتج المعرفة إلّا نسبياً، وما ننتجه ينبغي أن يكون في ترابط مع علميّة المعرفة وإلّا فسيكون هامشياً. أمّا أنواع النقد الأخرى فحدّث ولا حرج، أيّ شخص اليوم يستطيع عبر وسائل التواصل الاجتماعيّة أو الصحافة الإلكترونيّة أن يصبح سلطة معرفيّة وهميّة لها مريدوها الذين يهلّلون ويكبّرون، وقد قرأت من المقالات التي يخبط أصحابها خبط عشواء ما يثير الحيرة ويبعث على التشاؤم ! مجال النقد اليوم لم يعد ما كان عليه وكذلك مفهوم الناقد وتكوينه وهذا موضوع يحتاج إلى تحبير مئات الأوراق !

أمّا الوجه الثاني من السؤال فيتعلّق بتقييم الأدب الشّخصي في نصوصه العربيّة، وهذا أمر آخر مختلف تماماً في نظري. الكتابات العربيّة الذاتيّة انتعشت اليوم في كلّ الأقطار العربيّة انتعاشة غير مسبوقة، وهناك نسبة لا بأس بها من الكتاب المتمكّنين الذين ينتجون نصوصاً جديرة بالتدبّر ولا أدلّ على ذلك من أنّ الجوائز العربيّة الكبرى وغيرها بدأت ترصد جوائز لهذا الأدب، ولم يكن الأمر كذلك منذ أعوام. هناك ظروف موضوعيّة أدّت إلى هذه الانتعاشة وعلى رأسها تأتي مختلف الأحداث السياسيّة التي هزّت ومازالت تهزّ اليوم العالم العربيّ وتؤثّر في حياته اليوميّة ومستقبله. أصبح الفرد يعي تاريخيته ويعبّر عنها كلّ في الشّكل الأنسب لكفاءته وتجربته. وهذا مكسب كبير.

7- شغل "التخييل الذاتي" في العقود الأخيرة حيزاً كبيراً على المستوى النقدي والإعلامي، وأضحى بمنزلة تقليعة يتنافس الكتاب على ركوب غواربها لبواعث الأبهة من جهة، ولدواعي مقاومة الإيديولوجيا السيرذاتية، من جهة ثانية. ومع ذلك هناك من يرى فيه ظاهرة جديرة بالدراسة لأنّها جاءت ملء الحانة الفارغة بالرواية الصريحة التي يضطلع فيها سارد خيالي باستعادة حياة المؤلف. وفي هذا الصدد، هناك مقاربات كبرى للمفهوم: مقارنة الرفض، والمقاربة التخيلية، والمقاربة التأويلية، والمقاربة

المتقلبة. أين يتموضع تصورك ضمن هذه المقاربات؟ ألا يمكن أن نعد التخيل الذاتي بديلا للسيرة الذاتية لدواعي يفرضها الإبدال ما بعد الحدائي؟ ألا ترين- في المنحى نفسه- كيف يمكن للسيرة الذاتية أن تؤدي مهمتها ورسالتها (ميثاق الحقيقة) في وقت استفحلت فيه أساليب الزيف والتصنع والرياء، وحل الواقع الفائق (Hyperréel) محل الواقع المتلاشي مؤديا دوره؟

الحديث عن مقاربات التخيل الذاتي في الثقافة العربية سابق لأوانه حسب رأيي ولا يرقى إلى المستويات النظرية المطروحة في النقد الأجنبي. ومن جهتي أوضحت رأيي بما يجعله أقرب إلى ما سميتة مقارنة الرفض وهنا أوضح أنني لا أعني رفض مقارنة هذا الجنس من الأساس، ولكنني أرفض إلحاق مقارنته بكتابات الذات للأسباب السابقة ذكرها. ولست من الذين يتعاملون على ما يسمونه ايدولوجية السيرة الذاتية لأنّ التحامل عليها ينبغي منطقيا أن يصل إلى التحامل على كلّ الخطابات التاريخية، فكتابات الذات ليست مجرد تخيل ذاتي وليست كذبا محضا وتزويرا بلا سند، وإنما هي وثائق وشهادات لها أسلوبها ورهاناتها فحتّى الخطابات التاريخية الأكثر ادعاء للعلمنة لم تخل من نوازع أيديولوجية وتحيز وتزوير عندما تكون كتابتها موالية لسلطة ما. مسألة الحقيقة والكذب مسألة فلسفية شائكة، ولكنها مسألة خطائية أيضا نحن في كلّ الحالات نتعامل مع الواقع بواسطة لغوية وليس هناك أي مهرب من هذه الوسيلة فلا إمكانية لنا في التعبير عن شيء واحد وموحد نتفق بشأنه نسبه واقعا أو حقيقة.

8-الأدب الشخصي قارة مجهولة تحتاج إلى مزيد من الجهود لاستكشافها واستقصائها تطلعا إلى تعرّف مكوناتها وخصائصها. ما الدور الذي يمكن للسرديات الذاتية أن تؤديه وتنهض به لهذا الغرض

الأدب الشخصي ليس في نظري قارة مجهولة بقدر ما هو قارة خصبة وممتعة. فسيواصل هذا الأدب التنامي وسيزداد خصوبة وإبداعا هذا ما لا أشكّ فيه. وهذا التنامي أفصله عن السرديات والتدريس النقدي المعرفي له، فالسياقان مختلفان. للإبداع سياقاته وهي اجتماعية وحضارية وإنسانية، وللمعرفة سياقاتها أيضا وفي هذا الصدد من الهامّ جدّا أن ينشط نقد كتابات الذات في متابعتها لتطور الأدي الشخصي ولكن من الهام أيضا أن يطور من أدواته المعرفية النقدية وعلى رأسها استنباط أدوات مفهومية ملائمة لسرديات الذات بأنواعها، وهو حسب رأيي أهمّ رهان مطروح اليوم في حقل النقد على الباحثين والنقاد المختصين في هذا الأدب في العالم، وفي البلاد العربية. فجهاز السرديات الروائية اكتمل وحقق غاياته، أمّا جهاز سرديات الذات فهو ينتظر الإضافة.